آثار الإمام ابن قيّم الجوزيّة وما لحقها من أعمال

(١٧)

منظمة التعاون الإسلامي
مجمع الفقه الإسلامي الدولي
مطبوعات المجمع

عطاءات العلم

الدّاء والدّواء

مختصر

تأليف
الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيّم الجوزيّة
(٦٩١ - ٧٥١)

حقّقه
محمد أجمل الإصلاحي

خرّج أحاديثه
زائد بن أحمد النشيري

إشراف
بكر بن عبد الله أبو زيد

دار عطاءات العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1]

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين[2] ـ رضي الله عنهم أجمعين[3] ـ في رجل ابتلي ببلية، وعلم أنها إن استمرّت به أفسدت عليه[4] دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما تزداد[5] إلا توقّدًا وشدة؛ فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟

فرحم الله من أعان مبتلى[6]، «والله في عون العبد ما كان العبد[7] في عون أخيه»[8]، أفتونا مأجورين[9].

فأجاب الشيخ الإمام العالم شيخ الإسلام مفتي الفِرَق شمس الدين

---

(١) س: «رب يسر وأعن برحمتك». ز: «حسبي الله ونعم الوكيل، اللهم وفق». ل: «رب يسر وأعن».

(٢) هكذا بدأت النسختان ف، خب. وفي غيرهما ذكر اسم المؤلف وألقابه في أول الكلام، فبدأت ز مثلاً على النحو الآتي: «سئل الشيخ الإمام العالم...: ما تقول السادة العلماء... مأجورين. فكتب الشيخ رضي الله عنه: الجواب: الحمد لله، ثبت...».

(٣) «أجمعين» ساقط من ز.

(٤) «عليه» من س، ل، خا.

(٥) كذا في ل، خا. ولم ينقط حرف المضارع في س. وفي غيرها: «يزداد».

(٦) س: «المبتلى».

(٧) «العبد» ساقط من ف.

(٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (٢٦٩٩).

(٩) كذا في ف، ز. وزاد في س، خب: «رحمكم الله». وفي ل: «رحمكم الله ورضي عنكم». وزاد في خب: «وختم لكم بخير».

أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب إمام المدرسة الجوزية بدمشق المحروسة رضي الله عنه[1]:

الحمد لله[2]. ثبت في صحيح البخاري[3] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء».

وفي صحيح مسلم[4] من حديث جابر[5] بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله».

وفي مسند الإمام أحمد[6] من حديث أسامة بن شريك عن النبي ﷺ قال: «إن الله لم يُنْزِلْ داءً إلا أنزل له شفاءً، علِمَه مَن علِمَه، وجَهِله مَن

---

(١) كذا في ف. وانظر للألقاب الواردة في النسخ الأخرى: وصفها في مقدمة التحقيق.

(٢) زاد في ف: «رب العالمين».

(٣) في كتاب الطب (٥٦٧٨). وفي س: «صحيح مسلم والبخاري».

(٤) في كتاب السلام (٢٢٠٤).

(٥) س: «مسلم عن جابر».

(٦) ٤/ ٢٧٨ (١٨٤٥٦). من طريق مصعب بن سلّام ثنا الأجلح عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك... فذكره. وقد خولف مصعب. خالفه محمد بن فضيل، فرواه عن الأجلح عن زياد عن أسامة باللفظ الثاني الذي ذكره المؤلف. أخرجه الطبراني في الكبير ١/ ١٨٣(٤٧٨). ورواه محمد بن فضيل عن الشيباني والأجلح عن زياد به بمثله. أخرجه هناد في الزهد (١٢٦٠). ورواية الجماعة ـ كما سيأتي ـ بدون زيادة (علمه من علمه، وجهله من جهله) ورواتها حفاظ متقنون كالثوري وشعبة والأعمش وغيرهم. وأيضًا مصعب بن سلام فيه ضعف. وقد جاءت هذه الزيادة من حديث عبدالله بن مسعود عند أحمد في المسند (٣٥٧٨) وغيره. وفيه اختلاف في رفعه ووقفه، وفي سماع أبي عبدالرحمن السلمي من ابن مسعود. راجع علل الدارقطني ٥/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

جَهِله».

وفي لفظ[1]: «إن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً أو دواءً إلا داءً واحدًا» قالوا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «الهرَم». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[2].

وهذا يعمّ أدواءَ القلب والروح والبدن، وأدويتَها.

وقد جعل النبي ﷺ[3] الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء:

فروى أبو داود في سننه[4] من حديث جابر بن عبدالله قال: خرجنا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٨) وأبو داود (٢٠١٥) وابن ماجه (٣٤٣٦) وأحمد (١٨٤٥٤) والطبراني (١/ ١٧٩ ـ ١٨٤) وغيرهم، من طرق عن الثوري وشعبة وابن عيينة والأعمش وزائدة وزهير وغيرهم، كلهم عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك. فذكره بعضهم مطولا، وبعضهم مختصرًا. والحديث صححه سفيان بن عيينة والترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والدارقطني والضياء المقدسي والبوصيري وغيرهم. انظر الأحاديث المختارة (٤/ ١٧١)، والإلزامات والتتبع للدارقطني (ص١١٣ ـ ١١٤).

(٢) كذا في ف، ومتن الترمذي المطبوع مع تحفة الأحوذي (٦/ ١٦٠). وكذا في نسخة باريس من الجامع رواية الكروخي (ق/ ١٣٤)، ومثله في تحفة الأشراف للمزي (١/ ٦٢). وفي النسخ الأخرى: «حديث صحيح».

(٣) العبارة «يعم... ﷺ» ساقطة من س.

(٤) في كتاب الطهارة (٣٣٦). وأخرجه الدارقطني (١/ ١٩٠) والبغوي في شرح السنة (٣١٣) من طريق الزبير بن خُريق عن عطاء بن أبي رباح عن جابر، فذكره. قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (١/ ١٥٦): «صححه ابن السكن، وقال ابن أبي داود: تفرد به الزبير بن خريق، وكذا قال الدارقطني، قال: وليس بالقوي» ثم ذكر الاختلاف على رواة الحديث. وانظر تحقيق المسند (٣٠٥٦) وبيان الوهم والإيهام لابن القطان =(٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر، فشجّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه[1]، فقال[2]: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء. فاغتسل، فمات. فلما قدمنا على رسول الله [٢/أ] ﷺ أخبر بذلك فقال: «قتلوه، قتلهم الله! ألاّ سألوا إذ لم يعلموا! فإنما شفاء العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصِر ـ أو يعصِب ـ على جرحه خرقةً، ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده».

فأخبر أنّ الجهل داء، وأنّ شفاءه السؤال.

وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء[3]، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فصلت/ ٤٤].

وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ﴾ [الإسراء/ ٨٢] و«من» ههنا لبيان الجنس لا للتبعيض[4]، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية الأخرى[5]. فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع[6] في إزالة الداء من القرآن.

---

(١) ف: «الصحابة».
(٢) «فقال» ساقط من س.
(٣) ل: «أن القرآن شفاء». وقد أشير إلى هذه النسخة في حاشية س.
(٤) ل: «ههنا الجنس لا التبعيض».
(٥) يعني الآية السابقة. وفي النسخ المطبوعة: «المتقدمة» مكان «الأخرى».
(٦) س: «أبلغ».

وقد ثبت في الصحيحين[1] من حديث أبي سعيد قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ[2] في سَفْرة سافروها حتى نزلوا على حيّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يُضَيّفوهم[3]. فلُدِغَ سيّدُ ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهطَ الذين نزلوا، لعلّه أن يكون عند بعضهم شيء[4]. فأتوهم، فقالوا: أيها الرهط إن سيّدنا لُدِغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم[5]، والله إنّي لأرقي، ولكن والله استضفناكم فلم تُضَيّفونا، فما أنا براقٍ حتى تجعلوا لنا جُعْلاً. فصالحوهم على قطيع من الغنم. فانطلق يتفُل عليه، ويقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة/ ٢]. فكأنما نُشِطَ من عِقال، فانطلق يمشي، وما به قَلَبة[6]. فأوفَوهم جُعْلَهم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقتسِموا، فقال الذي رقَى: لا نفعل حتى نأتي النبي ﷺ[7]، فنذكر له الذي كان، فننظر بما يأمرنا. فقدِموا على رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك، فقال: «وما يدريك أنها رقية؟» ثم قال: «قد أصَبتُم، اقتسِمُوا واضرِبوا لي معكم سهمًا».

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب ما يعطي في الرقية... (٢٢٧٦) وغيره، ومسلم في السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (٢٢٠١).

(٢) ف: «رسول الله ﷺ».

(٣) س: «فلم يضيّفوهم»، وأشير في الحاشية إلى ما أثبتناه من غيرها.

(٤) ل: «عندهم بعض شيء».

(٥) سقط «نعم» من ز.

(٦) القلبة: الألم والعلّة. انظر النهاية (٤/ ٩٨).

(٧) ل: «رسول الله ﷺ».

فقد أثّر هذا الدواءُ في هذا[1] الداء، وأزاله حتى كأنْ لم يكن. وهو أسهل دواء وأيسره. ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيرًا عجيبًا في الشفاء.

ومكثتُ بمكة مدّةً تعتريني[2] أدواء، ولا أجد طبيبًا ولا دواء، فكنتُ أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيرًا [٢/ب] عجيبًا[3]. فكنت أصف ذلك لمن يشتكي[4] ألمًا، وكان[5] كثير منهم يبرأ سريعًا[6].

ولكن ههنا أمر ينبغي التفطّن له، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحلّ، وقوة همة الفاعل وتأثيره. فمتى تخلّف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء؛ كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإنّ عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع[7] قوي يمنع من اقتضائه أثره. فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول

---

(١) «هذا» ساقط من ف.

(٢) ف، ز: «يعتريني».

(٣) «أعالج... تأثيرًا» تكرر في س. وسقط «لا دواء فكنت... عجيبًا» من ز، واستدرك بخط مغاير في الحاشية.

(٤) ز: «اشتكى».

(٥) ف: «فكان».

(٦) وانظر كلام المؤلف في تأثير سورة الفاتحة في زاد المعاد (٤/ ١٧٦ـ ١٧٨)، وهناك أيضًا حكى عن نفسه أنه كان يتعالج في مكة بسورة الفاتحة. وانظر: مدارج السالكين (١/ ٥٧ ـ ٥٨).

(٧) ل: «المانع».

تام[1]، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة، أثّر في إزالة الداء[2].

وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره[3]، إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًّا فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا؛ وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظلم، ورَين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو[4] واللهو وغلبتها عليها[5].

كما في صحيح الحاكم[6] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ادعو الله وأنتم موقنـون بالإجابـة، واعلموا أنّ الله لا يقبل دعاءً مِن قلبٍ

---

(١) ف: «بالقبول التام».

(٢) س: «أثرت وأزالت الداء»، وأشير في الحاشية إلى ما أثبتنا من غيرها.

(٣) ف: «ولكن يتخلف أثره عنه».

(٤) س: «الشهوة»، ولم يرد فيها ما بعد هذه الكلمة.

(٥) كذا في ف،ز. وفي ل: «الغفلة والسهو والذنوب».

(٦) كذا سمّى المؤلف مستدرك الحاكم بالصحيح، وسيأتي مرارًا، وكذا يسمّيه شيخه، نظرًا إلى شرط المصنّف لا توثيقًا لتصحيحه. ويدلّ على ذلك قوله في الفروسية (١٨٥ـ ١٨٦): «ولا يعبأ الحفاظ أطباء علل الحديث بتصحيح الحاكم شيئًا، ولا يرفعون به رأسًا البتة، بل لا يدل تصحيحه على حسن الحديث، بل يصحح أشياء موضوعة بلا شك عند أهل العلم بالحديث...». وقال شيخ الإسلام: «... وروى ذلك الحاكم في صحيحه، لكن هذا ضعيف، وللحاكم مثل هذا، يروي أحاديث موضوعة في صحيحه» (رسالة في قنوت الأشياء ـ جامع الرسائل ١/ ١٢).

غافلٍ لاهٍ»[1].

فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوّته.

وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها، كما في صحيح مسلم[2] من حديث أبي هريرة: قال قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إنّ الله طيّب، لا يقبل إلا طيّبًا. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ[٣/أ] كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون/ ٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة/ ١٧٢]». ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعثَ أغبرَ يمدّ يده إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك!

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٧٠ ـ ٦٧١ (١٨١٧) والترمذي (٣٤٧٩) وابن حبان في المجروحين (١/ ٣٦٨) وابن عدي في الكامل (٤/ ٦٢) وغيرهم، من طريق صالح المرّي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، فذكره. قال الحاكم: «هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد البصرة، ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي بقوله: «صالح متروك». والحديث ضعفه الترمذي، وعدّه ابن عدي وابن حبان من منكرات صالح المري.

وورد من حديث عبدالله بن عمرو عند أحمد في المسند ٢/ ١٧٧ (٦٦٥٥) لكنه من طريق حسن بن موسى عن ابن لهيعة قال ابن المديني: «الحسن بن موسى إنما سمع من ابن لهيعة بأخرة...». وحسّنه المنذري والهيثمي انظر: الترغيب والترهيب (٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٢) ومجمع الزوائد (١٠/ ١٤٨) ومسند الفاروق لابن كثير (٢/ ٦٤٩).

(٢) في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

وذكر عبدالله ابن الإمام[1] أحمد في كتاب الزهد لأبيه[2]: أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجًا، فأوحى الله عز وجل إلى نبيّهم أن أخبرهم: تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكُفًّا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم، ولن تزدادوا مني إلا بعدًا.

وقال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البِرّ ما يكفي الطعام من الملح[3].

فصل

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل.

وهو سلاح المؤمن، كما روى الحاكم في صحيحه[4] من حديث علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن،

---

(١) «الإمام» من س.

(٢) لم أقف عليه في المطبوع، وأخرجه أبو داود في الزهد (١٣)، وفي سنده ضعف.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٨)، وابن المبارك في الزهد (٣١٩) وغيرهما، من طريق بكر بن عبدالله المزني عن أبي ذر، فذكره. قال أبو حاتم الرازي: «بكر بن عبدالله المزني عن أبي ذر مرسل». المراسيل (٢٥) لابن أبي حاتم (ط دار الكتب العلمية).

(٤) ١/٦٦٩ (١٨١٢). وأخرجه ابن عدي في الكامل (٦/١٧٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٣) وغيرهما. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح، فإن محمد بن الحسن هذا هو التل أو هو صدوق في الكوفيين». قلت: محمد بن الحسن هو ابن أبي يزيد الهمداني، متروك الحديث. وكذبه ابن معين وأبو داود. وقال بعضهم: ضعيف. انظر: تهذيب الكمال (٢٥/٧٦ ـ ٧٩) راجع السلسلة الضعيفة للألباني (١٧٩).

وعماد الدين، ونور السموات والأرض».

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء، فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد. ولكن[1] قد يخففه، وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كلّ واحد منهما صاحبه.

وقد روى الحاكم في صحيحه[2] من حديث عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «لا يغني حَذَر من قَدَر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل. وإن البلاء لينزل، فيلقاه الدعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة».

وفيه أيضًا[3] من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عبادَ الله بالدعاء».

---

(١) ز: «ولكنه».

(٢) ١/ ٦٦٩ (١٨١٣). وأخرجه الطبراني في الدعاء (٣٣)، والبزار في مسنده (زوائده: ٢١٦٥) وغيرهما. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي بقوله: «زكريا مجمع على ضعفه».

(٣) ١/ ٦٧٠ (١٨١٥). وأخرجه الترمذي (٣٥٤٨) من طريق عبدالرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، فذكره. قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر القرشي، وهو ضعيف في الحديث، ضعفه بعض أهل العلم من قبل حفظه». وقال الذهبي في التلخيص: «عبدالرحمن واهٍ».

وفيه أيضًا[1] من حديث ثوبان: «لا يردّ القدرَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمر إلا البِرّ، وإنّ الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

فصل

ومن أنفع الأدوية: [٣/ب] الإلحاح في الدعاء

وقد[2] روى ابن ماجه في سننه[3] من حديث أبي هريرة قال: قال

---

(١) ١/ ٦٧٠ (١٨١٤). وأخرجه ابن ماجه (٤٠٢٢) وأحمد ٣٧/ ٦٨ (٢٢٣٨٦) وابن حبان (٨٧٢) والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٦ (٣٤١٨) وغيرهم، من طريق الثوري عن عبدالله بن عيسى عن عبدالله بن أبي الجعد عن ثوبان، فذكره. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». قلت: ولم يتعقبه الذهبي. وقد وقع في الحديث اختلاف، وطريق الثوري أشبه بالصواب، لكن في سنده عبدالله بن أبي الجعد، لم يوثقه غير ابن حبان.

وورد من حديث سلمان بلفظ «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». أخرجه الترمذي (٢١٣٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب من حديث سلمان، لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن الضريس». قلت: والحديث تفرد به أبو مودود، واسمه فضة ـ ضعيف الحديث ـ عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان. انظر: تهذيب الكمال (٢٣/ ٢٦٧).

(٢) لم يرد «وقد» في س.

(٣) رقم (٣٨٢٧). وأخرجه الترمذي (٣٣٧٣) وأحمد ٢/ ٤٤٢ (٩٧٠١) والحاكم ١/ ٦٦٨ (١٨٠٧) وغيرهم، من طريق أبي المليح عن أبي صالح الخوزي عن أبي هريرة، فذكره. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، فإن أبا صالح الخوزي وأبا المليح الفارسي لم يذكرا بالجرح، وإنما هما في عداد المجهولين لقلة الحديث». قلت: الحديث تفرد به أبو صالح الخوزي، وهو لم يرو عنه غير أبي المليح، وقال فيه ابن معين: ضعيف الحديث. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال ابن حجر: لين الحديث. وجعل ابن عدي هذا الحديث من مفاريده. انظر تهذيب الكمال (٣٣/ ٤١٨) والكامل في الضعفاء (٧/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

رسول الله ﷺ: «من لم يسأل اللَّهَ يغضَبْ عليه».

وفي صحيح الحاكم[1] من حديث أنس عن النبي ﷺ: «لا تعجزوا في الدعاء، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد».

وذكر الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب المِلحّين في الدعاء»[2].

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد[3] عن قتادة قال: قال مُوَرِّق: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلاً في البحر على خشبة، فهو يدعو: يارب

---

(١) ١/ ٦٧١ (١٨١٨). وأخرجه ابن حبان (٨٧١) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ١٨٨) وابن عدي في الكامل (٥/ ١٣) وغيرهم، من طريق عمر بن محمد بن صهبان الأسلمي عن ثابت عن أنس فذكره. صححه الحاكم قال الحافظ في اللسان (٦/ ١٤١): «صححه الحاكم فتساهل في ذلك». قلت: الحديث تفرد به عمر بن محمد عن ثابت. وعمر هذا قال البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك. وقال أحمد: لم يكن بشيء. وقال العقيلي: «لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به». وقد وقع في سند ابن حبان والحاكم وهم. راجع السلسلة الضعيفة للألباني (٨٤٣) والتعليق على ابن حبان.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٥٢) والطبراني في الدعاء (٢٠) وابن عدي في الكامل (٧/ ١٦٤)، من طريق بقية عن يوسف بن السفر عن الأوزاعي به، فذكره. ويوسف هذا متروك، قاله أبو زرعة والنسائي. وقال البخاري: كان يكذب. وقال ابن عدي: «وهذه الأحاديث التي رواها يوسف عن الأوزاعي بواطيل كلها».

والصحيح في المتن أنه من قول الأوزاعي. هكذا رواه عيسى بن يونس عن الأوزاعي قال: كان يقال: «أفضل الدعاء الإلحاح على الله والتضرّع إليه». أخرجه العقيلي (٤/ ٤٥٢) وقال: حديث عيسى بن يونس أولى.

(٣) رقم (١٧٦٥)، ورجاله ثقات.

يارب، لعل الله عز وجل أن ينجيه.

فصل

ومن الآفات التي تمنع ترتُّبَ أثرِ الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطىء الإجابة، فيستحسرَ، ويدَعَ الدعاء. وهو بمنزلة مَن[1] بذر بَذرًا، أو غرس غِراسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلمّا استبطأ كمالَه وإدراكَه، تركه وأهمله!

وفي صحيح البخاري[2] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال[3]: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجَلْ، يقول: دعوتُ، فلم يُستجَبْ لي».

وفي صحيح مسلم[4] عنه: «لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعةِ رحمٍ، ما لم يستعجِلْ». قيل: يا رسولَ الله، وما الاستعجال[5]؟ قال: «يقول: قد دعوتُ وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجيب[6] لي. فيَستحسِرُ عند ذلك ويدَعُ الدعاء».

---

(١) «أن يستعجل... من» ساقط من س.

(٢) ز: «وفي البخاري». والحديث في كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (٦٣٤٠).

(٣) ف: «أبي هريرة قال: قال رسول الله».

(٤) في كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل (٢٧٣٥).

(٥) س: «وما لا يستعجل».

(٦) س، ل: «يستجب».

وفي مسند أحمد[1] من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل» قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد[2] دعوتُ ربّي، فلم يَستجِبْ لي».

فصل

وإذا جمع الدعاءُ حضورَ القلب وجمعيتَه بكلّيته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير[3] من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم[4]؛ وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الربّ، وذلاً له، وتضرّعًا ورِقّةً؛ واستقبل [٤/أ] الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدّم بين يدي

---

(١) ٣/١٩٣ (١٣٠٠٨، ١٣١٩٨). وأخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٨٦٥) والطبراني في الدعاء (٨١) وابن عدي في الكامل (٦/٢١٤) وغيرهم، من طريق أبي هلال الراسبي عن قتادة عن أنس به فذكره. قلت: أبو هلال اسمه محمد بن سليم. في حفظه مقال، ويخالف أو يتفرد عن قتادة ولهذا قال ابن عدي بعدما ساق لأبي هلال أحاديث: «وهذه الأحاديث لأبي هلال عن قتادة عن أنس كل ذلك أو عامتها غير محفوظة».

وقد روي من وجهين عن أنس، ولا يثبت. انظر مسند البزار (٦٦٦٦) والحلية (٦/٣٠٩).

(٢) لم يرد «قد» في «ف» وكذا في المسند (٢٠/٣١١). وفيه (٢٠/٤٢٢) كما أثبتنا من النسخ الأخرى.

(٣) س: «الآخر».

(٤) «اليوم» ساقط من س.

حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألحّ عليه[1] في المسألة، وتملّقه، ودعاه رغبة ورهبة[2]، وتوسّل إليه بأسمائه[3] وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة = فإنّ هذا الدعاء لا يكاد يُرَدّ أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم:

فمنها ما في السنن وصحيح ابن حبان من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: «لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»[4].

---

(١) ف: «به عليه».

(٢) زاد في س: «وتملقه» مكررًا.

(٣) في ز: «الحسنى» فوق السطر.

(٤) أخرجه أبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤) والترمذي (٣٤٧٥) وابن ماجه (٣٨٥٧) وابن حبان (٨٩٢) وأحمد ٥/ ٣٥٠ (٢٢٩٥٢، ٢٢٩٦٥) من طريق مالك بن مغول عن ابن بريدة عن أبيه، فذكره. وفيه قصة.

ورواه عبدالوارث عن حسين بن ذكوان المعلم عن عبدالله بن بريدة عن حنظلة بن علي أن محجن بن الأدرع حدثه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهد، وهو يقول: اللهم إني أسألك بالله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم. قال: فقال نبي الله ﷺ: «قد غفر له، قد غفر له، قد غفر له» ثلاث مرات. أخرجه أحمد ٤/ ٣٣٨ (١٨٩٧٤) وابن خزيمة (٧٢٤) والحاكم ١/ ٤٠٠ (٩٨٥) وغيرهم. قال أبو حاتم الرازي بعد ذكر الطريقين: «وحديث عبدالوارث أشبه».

قلت: حديث عبدالوارث صححه ابن خزيمة والحاكم. انظر علل ابن أبي حاتم ٢/ ١٩٧ ـ ١٩٨ (٢٠٨٢).

وفي لفظ: «لقد سألتَ الله باسمه الأعظم»[1].

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا، ورجلٌ يصلي، ثم دعا فقال[2]: اللهم إنّي أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[3].

وأخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده[4].

وفي جامع الترمذي[5] من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ

---

(١) سنن أبي داود (١٤٩٤). وفي ز: «لقد سأل».

(٢) «فقال» لم يرد في ف.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٥) والنسائي (١٣٠٠) وابن ماجه (٣٨٥٨) والترمذي (٣٥٤٤) وابن حبان (٨٩٣) وأحمد ٣/ ١٢٠، ١٥٨، ٢٦٥ (١٢٢٠٥، ١٢٦١١، ١٣٧٩٨) وغيرهم، من طرق كثيرة عن أنس فذكره، وفيه قصة. وأقوى الطرق عن أنس: طريق إبراهيم بن عبيد بن رفاعة، وطريق أنس بن سيرين، وطريق حفص بن عمر.

والحديث صححه ابن حبان والحاكم والضياء المقدسي. انظر: الأحاديث المختارة (١٥١٤، ١٥٥٢، ١٨٨٥).

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) برقم (٣٤٧٦). وأخرجه أبو داود (١٤٩٦) وابن ماجه (٣٨٥٥) وأحمد (٦/ ٤٦١) والطبراني في الدعاء (١١٣) والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٨ ـ ٣٩) وغيرهم، من طريق عبيدالله بن أبي زياد ثنا شهر بن حوشب عن أسماء، فذكرته.

والحديث صححه الترمذي، وتكلم فيه البغوي فقال: «هذا حديث غريب». قلت: عبيدالله وشهر في حفظهما ضعف.

قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة/ ١٦٣] وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران/ ١ ـ ٢]». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي مسند أحمد[١] وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة، وأنس بن مالك، وربيعة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلِظُّو بـ(يا ذا الجلال والإكرام)»[٢]. يعني: [٤/ب] تعلّقوا بها، والزموها، وداوموا عليها.

وفي جامع الترمذي[٣] من حديث أبي هريرة أنّ النبي ﷺ كان إذا أهمّه[٤] الأمرُ رفع رأسه[٥] إلى السماء، [فقال: «سبحان الله

---

(١) ف: «الإمام أحمد».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٧٧ (١٧٥٩٦) والحاكم ١/ ٦٧٦ (١٨٣٦) والطبراني في الدعاء (٩٢) وغيرهم، من حديث ربيعة بن عامر. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
وأخرجه الحاكم ١/ ٦٧٦ ـ ٦٧٧ (١٨٣٧) من حديث أبي هريرة. وفيه رشدين بن سعد، ضعيف الحديث. وأخرجه الترمذي (٣٥٢٥) والطبراني في الدعاء (٩٤) وغيرهما من حديث أنس، وقد أعله أبو حاتم الرازي والترمذي بالإرسال. انظر: علل ابن أبي حاتم (٢/ ١٧٠ ـ ١٩٢). وله طريق آخر عن أنس، ولا يصح.
فالخلاصة أن الحديث صحيح الإسناد عن ربيعة بن عامر، ولا يثبت عن غيره.

(٣) برقم (٣٤٣٦) وقال: «هذا حديث غريب». قلت: فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي. قال البخاري: منكر الحديث. وقال الدارقطني: متروك.

(٤) س: «همّه».

(٥) غيّربعض قراء النسخة (ز) «رأسه» إلى «يديه».

العظيم»][1]، وإذا اجتهد في الدعاء قال: «يا حيّ يا قيوم».

وفيه أيضًا[2] من حديث أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كَرَبه[3] أمرٌ قال: «يا حيّ ياقيوم برحمتك أستغيث».

وفي صحيح الحاكم[4] من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنّه[5] قال: «اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن: البقرة وآل عمران وطه». قال القاسم: فالتمستُها، فإذا هي آية ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾.

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ دعا، وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء/ ٨٧] إنّه لم يدعُ[6] بها مسلمٌ في شيء قطّ إلا استجاب الله له»[7]. قال الترمذي:

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة من الحديث المذكور.

(٢) برقم (٣٥٢٤) وقال: «وهذا حديث غريب». قلت: تفرد به يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد أقلّ أحواله أنه ضعيف.
ورواه إبراهيم بن طهمان عن الحجاج بن الحجاج عن قتادة عن أنس قال: كان النبي ﷺ يدعو: «يا حي يا قيوم». أخرجه الطبراني في الدعاء. وظاهر سنده لا بأس به.

(٣) كان في ف: «حزبه»، فغيّر إلى «كربه».

(٤) ١/ ٦٨٤ (١٨٦١). وأخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٢) وتمام في فوائده (١٥٦٨ ـ الروض البسام) وغيرهم، من طريق القاسم أبي عبدالرحمن عن أبي أمامة، فذكره. وفي رواية القاسم هذا عن أبي أمامة كلام. انظر تهذيب الكمال (٢٣/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧).

(٥) «أنّه» لم يرد في س.

(٦) س: «يصدع».

(٧) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) والحاكم ١/ ٦٨٤، ٦٨٥ (١٨٦٢، ١٨٦٣) وأحمد =

حديث صحيح[1].

وفي صحيح الحاكم[2] أيضًا من حديث سعد عن النبي ﷺ: «ألا أخبركم بشيء، إذا نزل برجل منكم [كرب أو بلاء من بلايا الدنيا][3] فدعا به يفرج الله عنه؟ دعاء ذي النون».

وفي صحيحه أيضًا[4] عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول[5]: «هل أدلّكم

= ١/ ١٧٠ (١٤٦٢) والطبراني في الدعاء (١٢٤) وغيرهم.
ذكر الترمذي بعض الاختلاف في إسناده. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٦٨: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(١) لم يرد حكم الترمذي هذا في نسخ الجامع المطبوعة ولا في نسخة الكروخي وتحفة الأشراف.

(٢) ١/ ٦٨٥ (١٨٦٤)، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٦٦٠) من طريق محمد بن مهاجر القرشي عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده، فذكره.
قلت: حديث يونس بن أبي إسحاق عن إبراهيم أصح من حديث محمد بن مهاجر عن إبراهيم، لأن محمد بن مهاجر قال فيه ابن عدي والذهبي: ليس بمعروف. وقال ابن حجر: ليّن.
انظر: تهذيب الكمال (٢٦/ ٥١٩) والتاريخ الكبير للبخاري (١/ ٢٣٠) والكامل لابن عدي (٦/ ٢٦٤).

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة من المستدرك وعمل اليوم والليلة. وفي خب: «أمر مهمّ»، وكذا في ط.

(٤) ١/ ٦٨٥ (١٨٦٥). قلت: فيه عمرو بن بكر السكسكي. قال الذهبي: أحاديثه شبه موضوعة. وقال ابن حجر: متروك. انظر تهذيب الكمال (٢١/ ٥٥١) والتقريب (٤٩٩٣).

(٥) «يقول» لم يرد في ز.

على اسم الله الأعظم؟ دعاءُ يونس». فقال رجل: يا رسول الله، هل[1] كانت ليونس خاصةً؟ فقال: «ألا تسمع قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء/ ٨٨] فأيّما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرةً، فمات في مرضه ذلك، أعطي أجرَ شهيد. وإنْ برأ برأ مغفورًا له».

وفي الصحيحين[2] من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم[3]، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض ربُّ العرش الكريم».

وفي مسند الإمام أحمد[4] من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: علّمني رسول الله ﷺ ـ إذا نزل بي كرب ـ أن أقول: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحانَ الله [٥/أ]، وتبارك اللَّهُ ربُّ العرش العظيم، والحمد لله ربِّ العالمين».

وفي مسنده[5] أيضًا من حديث عبدالله بن مسعود قال: قال رسول

---

(١) س: «هي».

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب الدعاء عند الكرب (٦٣٤٦)؛ ومسلم في الذكر والدعاء، باب دعاء الكرب (٢٧٣٠).

(٣) من أول الدعاء إلى هنا ساقط من س.

(٤) ١/ ٩١، ٩٤ (٧٠١، ٧٢٦) وأخرجه ابن حبان (٨٦٥) والحاكم ١/ ٦٨٨ ـ ٦٨٩ (١٨٧٣، ١٨٧٤) وغيرهم. والحديث صححه ابن حبان والحاكم وابن حجر. انظر الفتوحات الربانية لابن علّان (٤/ ٧).

(٥) ١/ ٣٩١ (٣٧١٢). وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٩٧٩) والحاكم ١/ ٦٩٠ (١٨٧٧) والطبراني في الدعاء (١٠٣٥) وغيرهم، من طرق عن فضيل بن =

الله ﷺ: «ما أصاب أحدًا قط همّ ولا حزن، فقال: اللهم إنّي عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمُك، عدلٌ فيّ قضاؤك. أسألك اللهمّ بكلِّ اسمٍ هو لك، سمّيتَ به نفسَك، أو علّمتَه أحدًا مِن خلقِك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاء حزني وذَهاب همّي؛ إلا أذهبَ اللَّهُ عزّ وجلّ همَّه وحزنَه، وأبدله مكانه فرحًا». فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلّمها؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعها[1] أن يتعلّمها»[2].

وقال ابن مسعود: ما كُرِبَ نبيٌّ من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح[3].

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين في الدعاء[4] عن الحسن[5] قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا مِعْلَق، وكان

= مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن ابن مسعود، فذكره. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه». وتعقبه الذهبي بقوله: «وأبو سلمة لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة».

قلت: عبدالرحمن لم يسمع من أبيه ابن مسعود إلا حديثًا أو نحوه لصغر سنه. وأبو سلمة إن كان هو موسى بن عبدالله فهو ثقة، وإلا فهو مجهول. والله أعلم. انظر جامع التحصيل للعلائي (٤٣٧). والحديث صححه ابن حبان والحاكم والمؤلف وغيرهم وحسّنه ابن حجر في اللسان (٩/ ٨٤).

(١) ز: «يسمعها».

(٢) انظر تفسير هذا الحديث في شفاء العليل (٢٧٤).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) برقم (٢٣)، ولا يثبت سنده.

(٥) في كتاب المجابين: «عن الحسن عن أنس...».

تاجرًا، يتّجر بمال له ولغيره، يضرب به في[1] الآفاق، وكان ناسكًا ورِعًا. فخرج مرةً، فلقيه لصّ مقنَّع في السلاح، فقال له: ضَعْ ما معك، فإني قاتلك. قال: ما تريد إلى دمي؟ شأنك بالمال. قال: أما المال فلي، ولست أريد إلا دمك. قال[2]: أمّا إذ[3] أبيتَ، فذرني أصلي أربع ركعات. قال صلِّ ما بدا لك. فتوضأ، ثم صلّى[4] أربع ركعات. فكان[5] من دعائه في آخر سجدة أن قال: يا ودود[6]، يا ذا العرش المجيد، يا فعالُ[7] لما يريد، أسألك بعزّك الذي لا يُرام، ومُلكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركانَ عرشك: أن تكفيَني[8] شرَّ هذا اللصّ. يا مغيثُ أغِثْني، يا مغيثُ أغِثْني[9] ثلاث مرات. فإذا هو بفارس قد أقبل، بيده حَرْبةٌ، قد وضعها بين أذنَي فرسِه. فلمّا بصُر به اللصُّ أقبل نحوَه، فطعنه، فقتله. ثم أقبل إليه، فقال: قم، فقال: من أنت، بأبي أنت[10] وأمّي؟ فقد أغاثني الله بك اليوم. فقال: أنا ملَك من أهل السماء الرابعة، دعوتَ بدعائك الأول، فسمعتُ لأبواب السماء قعقعةً، ثم

---

(١) «في» ساقط من ف.

(٢) ف: «فقال».

(٣) س،ل: «إذا».

(٤) ف: «وصلّى».

(٥) س: «وكان».

(٦) س،ل: «يا ودود، يا ودود».

(٧) س،ز: «فعالاً».

(٨) س: «تكفّني»، وفي الحاشية أشير إلى هذه النسخة.

(٩) كذا في س،ز. وفي ف ورد «يا مغيث أغثني» مرة واحدة، وفي ل ثلاث مرات.

(١٠) «أنت» ساقط من ف.

دعوتَ بدعائك الثاني، فسمعتُ لأهل السماء ضجّةً. ثم دعوتَ بدعائك الثالث، فقيل لي[1]: دعاء مكروب. فسألتُ الله [٥/ب] أن يُولّيني قتلَه.

قال الحسن[2]: فمن توضأ، وصلّى أربع ركعات، ودعا بهذا الدعاء، استجيب له، مكروبًا كان[3] أو غير مكروب.

فصل

وكثيرًا ما تجد أدعيةً دعا بها قوم، فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورةُ صاحبه، وإقباله على الله، أو حسنةٌ تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابةَ دعوته شكرًا لحسنته، أو صادف وقتَ إجابة ونحو ذلك، فأجيبت دعوته. فيظن الظانّ أن السرّ في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجردًا عن[4] تلك الأمور التي قارنَتْه من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعًا في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به، فظنّ[5] غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كافٍ[6] في حصول المطلوب، كان غالطًا. **وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس.**

ومن هذا أنّه[7] قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب، فيظنّ الجاهل أنّ السرّ للقبر، ولم يعلم أنّ السرّ للاضطرار وصدق اللجأ إلى

---

(١) «لي» ساقط من ز.
(٢) كذا في الأصول. وفي كتاب المجابين: «قال أنس».
(٣) «كان» ساقط من س.
(٤) س: من.
(٥) ز: «وظنّ».
(٦) س، ز: «كافيًا». ل: «نافع».
(٧) «أنه» ساقط من ل.

الله. فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله كان أفضل وأحبّ إلى الله.

فصل

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحدّه[1] فقط، فمتى[2] كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعد ساعد قوي[3]، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو. ومتى تخلّف واحد من هذه الثلاثة تخلّف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر.

فصل

وههنا سؤال مشهور، وهو أنّ المدعوّ به إن كان قد قُدِّر لم يكن بدّ من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدعُ. وإن لم يكن قد قدّر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله[4].

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء، وقالت: لا فائدة

---

(١) «والسلاح... بحدّه» ساقط من س.

(٢) س: «فإن».

(٣) ف: «والساعد قوي».

(٤) وانظر في هذه المسألة: مدارج السالكين (٣/ ١٠٤)، ومجموع الفتاوى (٨/ ١٩٢)، واقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٢٨). وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع (٢/ ١٤٤) رسالة للمؤلف في هذه المسألة بعنوان «الجواب الشافي لمن سأل عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قد قُدر واقع» (كذا «واقع» بالرفع، و«الشافي» لعلّ صوابه: «النافع» ليتمّ السجع). وقد تفرّد الشوكاني بذكر هذه الرسالة، ولا ندري أهي رسالة مستقلّة، أم استخرج بعضهم هذا الفصل من كتابنا، وسمّاه بذلك الاسم.

فيه! وهؤلاء ـ مع فرط جهلهم وضلالهم ـ متناقضون، فإنّ طردَ مذهبهم يُوجِب تعطيلَ جميع الأسباب.

فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والريّ قد قُدِّرا لك فلابد[1] من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل. وإن [٦/أ] لم يقدّرا لم يقعا، أكلتَ أو لم تأكل.

وإن كان الولد قدّر لك فلابد منه، وطئتَ الزوجة والأمة[2] أو لم تَطأ. وإن لم يقدّر لم يكن، فلا حاجة إلى التزوّج والتسرّي. وهلمّ جرّا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته. فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلا.

وتكايس بعضهم، وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض، يثيب الله عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما. ولا فرق عند هذا[3] الكيّس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباطُ الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

وقالت طائفة أخرى أكيَسُ من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أمارةً على قضاء الحاجة. فمتى وُفّق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أنّ حاجته قد قُضيت. وهذا كما إذا رأينا غيمًا

---

(١) س: ل «فلا فائدة»، تحريف.

(٢) س: «أو الأمة».

(٣) «هذا» ساقط من س.

أسودَ باردًا في زمن الشتاء، فإنّ ذلك دليل وعلامة على أنّه يمطر.

قالوا[1]: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنّها أسباب له.

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحريق[2] مع الإحراق، والإزهاق مع القتل. ليس شيء من ذلك سببًا ألبتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا مجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي[3].

وخالفوا بذلك الحس، والعقل، والشرع، والفطرة؛ وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء[4]!

والصواب أنّ ههنا قسمًا ثالثًا غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدور[5] قُدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء. فلم يقدر مجردًا عن سببه، ولكن قدر بسببه. فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور[6]، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور. وهذا كما قُدر الشبع والريّ بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه[7]. وكذلك [٦/ب] قُدر دخول الجنة بالأعمال،

---

(١) «قالوا» ساقط من س.
(٢) س: «الحرق».
(٣) انظر: طريق الهجرتين (١٩٦، ٢٠٦) وشفاء العليل (١٨٨).
(٤) «بل... العقلاء» ساقط من ز.
(٥) ز: «المقدر».
(٦) س: «المقدر».
(٧) ز: «بالذبح».

ودخول النار بالأعمال[1].

وهذا القسم هو الحق، وهو الذي حُرِمَه السائل ولم يوفَّق له.

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب. فإذا قُدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال! وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلمَ الأمةِ بالله ورسوله، وأفقههم في دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم. وكان عمر بن الخطاب[2] رضي الله عنه يستنصر به على عدوه، وكان[3] أعظم جنديه[4]، وكان يقول للصحابة[5]: لستم تُنصَرون بكثرة، وإنما تُنصَرون من السماء[6].

وكان يقول: إنّي لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء. فإذا أُلهِمتُ الدعاءَ فإنّ الإجابة معه[7].

وأخذ الشاعر هذا، فنظمه، فقال:

---

(١) سقط «ودخول النار بالأعمال» من ز، فكتب بعضهم فوق السطر: «الصالحة».
(٢) «بن الخطاب» من س، ز.
(٣) ل: «فكان».
(٤) ف: «جنده».
(٥) ف: «لأصحابه».
(٦) لم أقف عليه.
(٧) ذكره المصنف في المدارج (٣/ ١٠٣) والفوائد (٩٧)، وشيخ الإسلام في الفتاوى (٨/ ١٩٣) والاقتضاء (٢/ ٢٢٩).

لو لم تُرِدْ نيلَ ما أرجو وأطلُبه مِن جودِ كفّك ما عوّدتَني الطلَبا[1]

فمَن أُلهِمَ الدعاءَ فقد أريد به الإجابة، فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر/ ٦٠] وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٦].

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل اللَّهَ يغضَبْ عليه»[2].

وهذا يدل على أنّ رضاه في سؤاله وطاعته. وإذا رضي الربّ تبارك وتعالى فكلّ[3] خير في رضاه، كما أنّ كل بلاء ومصيبة في غضبه.

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد[4] أثرًا[5]: «أنا الله، لا إله إلا أنا، إذا رضيتُ باركتُ، وليس لبركتي منتهى[6]. وإذا غضبتُ لعنتُ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد».

وقد[7] دل العقل والنقل والفطر وتجارب الأمم ـ على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها ـ على أنّ التقرب إلى ربّ العالمين وطلب مرضاته، والبرّ والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل

---

(١) س،ل: «كفّيك». وذكره المؤلف في المدارج (٣/١٠٣)، وفيه: «بذل ما أرجو».

(٢) تقدّم تخريجه في ص (١٣).

(٣) س،ز: «وكل»، خطأ.

(٤) برقم (٢٨٩)، وسنده صحيح إلى وهب بن منبه.

(٥) «أثرًا» ساقط من س.

(٦) س: «عن منتهى»، خطأ.

(٧) ز: «ولقد».

خير. وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شرّ. فما استُجلِبتْ [٧/أ] نِعمُ الله واستُدفِعتْ نِقَمُه بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

وقد رتّب الله سبحانه حصولَ الخيرات في الدنيا والآخرة[١] وحصولَ الشرور في الدنيا والآخرة[٢] في كتابه على الأعمال، ترتيب[٣] الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبّب على السبب.

وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع[٤].

فتارةً يرتب الحكم الخبري الكوني والأمري[٥] الشرعي على الوصف المناسب له، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف/ ١٦٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف/ ٥٥]، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة/ ٣٨] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب/ ٣٥]. وهذا كثير جدًّا.

---

(١) «وقد رتب... الآخرة» ساقط من ز.

(٢) كتب في حاشية ز: «مرتب» مع علامة صح. ولعله تقويم للعبارة بعدما سقط أول الكلام.

(٣) ف: «ترتب».

(٤) وقال المصنف في المفتاح (١/ ٣٦٣): «ولو كان هذا في القرآن والسنّة في نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة».

(٥) «الأمري» من ز، ويبدو أنه كذا كان في ف أيضًا ثم طمس. وفي غيرهما: «الأمر».

وتارةً يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء، كقوله: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال/ ٢٩]، وقوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة/ ١١] وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن/ ١٦]، ونظائره.

وتارة يأتي بلام التعليل، كقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص/ ٢٩] وقوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة/ ١٤٣].

وتارة يأتي بأداة (كَي) التي للتعليل، كقوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر/ ٧].

وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران/ ١٨٢، والأنفال/ ٥١] وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف/ ٤٣][1] و﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام/ ١٢٩][2] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[3] [الأعراف/ ١٤٦].

---

(١) وانظر أيضًا: النحل: ٣٢، والسجدة: ١٤، والزخرف: ٧٢، والطور: ١٩، والمرسلات: ٤٣.

(٢) وانظر أيضًا: الأعراف: ٩٦، والتوبة: ٨٢، ٩٥، ويونس: ٨، ويس: ٦٥، وفصلت: ١٧، والجاثية: ١٤.

(٣) وردت الآية في جميع النسخ خطأ: ((ذلك بأنهم كفروا بآياتنا))، فأثبتوا في ط قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١، وآل عمران: ١١٢].

وتارة يأتي بالمفعول لأجله ظاهرًا أو محذوفًا[1]، كقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٨٢]، وقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف/ ١٧٢]، وقوله: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام/ ١٥٦] أي كراهة أن تقولوا.

وتارة يأتي بفاء السببية، كقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس/ ١٤] وقوله: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة/ ١٠] وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنين/ ٤٨]، ونظائره.

وتارة يأتي بأداة (لمّا) الدالة على الجزاء، كقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف/ ٥٥]، ونظائره.

وتارة يأتي بإنّ وما [٧/ب] عملت فيه، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء/ ٩٠]، وقوله في ضد هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء/ ٧٧].

وتارة يأتي بأداة (لولا) الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها، كقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات/ ١٤٣ ـ ١٤٤].

وتارة يأتي بـ(لو) الدالة على الشرط، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء/ ٦٦].

---

(١) ف، س: «ومحذوفًا».

وبالجملة، فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتُّبِ[1] الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتُّبِ[2] أحكام الدنيا[3] والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

ومن فقه[4] هذه المسألةَ، وتأملها حقّ التأمل، انتفع بها غاية النفع، ولم يتّكل[5] على القدر جهلاً منه وعجزًا وتفريطًا وإضاعةً، فيكون توكلُه عجزًا، وعجزه توكلاً.

بل الفقيهُ كلُّ الفقيه الذي يردّ القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسانَ يعيشُ[6] إلا بذلك، فإنّ الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلقُ كلّهم ساعون[7] في دفع هذا القدر بالقدر[8].

وهكذا[9]، من وفّقه الله، وألهمه رُشدَه، يدفع قدَر العقوبة[10]

---

(١) س: «ترتيب».

(٢) ز: «يرتب».

(٣) السياق في ف: «صريح في ترتب الجزاء بالخير والشرّ في الدنيا...».

(٤) ما عدا س، خب: «فقه في» وضبطت في ز، ل بضم القاف. وفي ط: «تفقه في».

(٥) ز: «ومن يتكل».

(٦) كذا في النسخ كلها ما عدا ز التي فيها: «العيش». وفي ط: «أن يعيش». وما ورد في النسخ جائز مقبول.

(٧) س: «سارعون».

(٨) وانظر مدارج السالكين (١/١٩٩)، وطريق الهجرتين (٦٤)، ومجموع الفتاوى (٨/٣٠٦، ٥٤٧).

(٩) س: «هذا»، تحريف.

(١٠) زاد بعضهم في ز فوق السطر: «الدنيوية و»، مع علامة صح، وهو خطأ. وفي س: «قدره»، وهو أيضًا خطأ، وقد تحرّفت فيها كلمة «الأخروية» أيضًا.

الأخروية بقدَر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة؛ فهذا وِزان القدر المخوف في الدنيا وما يضادّه سواء[1]. فربُّ الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا.

فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قَدْرها، ورعاها حقّ رعايتها، والله المستعان.

لكن يبقى عليه أمران، بهما تتم سعادته وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، ويكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده[2] في العالم، وما جرّبه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا.

ومن أنفع ما في ذلك تدبُّر القرآن، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الشرّ والخير[3] جميعًا مفصّلةً مبيّنةً. ثم السنّة، فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني. ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يُرِيانِك الخير والشرّ وأسبابهما، حتّى كأنّك تعاين ذلك عيانًا.

وبعد ذلك [٨/أ] إذا تأملتَ أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمتَه من القرآن والسنة، ورأيت تفاصيل[4] ما أخبر الله به ووعد به[5]، وعلمتَ من آياته في الآفاق ما يدلّك على أن

---

(١) «سواء» ساقط من ف.

(٢) ز: «شاهده».

(٣) خب: «الخير والشرّ».

(٤) ف، خب: «ورأيته بتفاصيل». وفي ز: «بفاضل».

(٥) «ووعد به» ساقط من س.

القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة. فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرّفنا الله ورسوله به[١] من الأسباب الكلية للخير والشر.

فصل

والأمر الثاني[٢]: أن يحذر مغالطةَ نفسِه له[٣] على هذه الأسباب. وهذا من أهم الأمور، فإنّ العبد يعرف أنّ المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه[٤] وآخرته، ولا بدَّ؛ ولكن تغالطه نفسه[٥] بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة تارة، وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء والاقتداء[٦] بالأكابر تارة.

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل، ثم قال: «أستغفر الله» زال أثر الذنب، وراح هذا بهذا!

وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه، كما صحّ عن النبي

---

(١) «به» من ف، ز.

(٢) ما عدا س، ل: «الأمر الثاني» دون الواو.

(٣) ز: «به».

(٤) زاد في س قبل «دنياه»: «دينه و».

(٥) ل: «يغالطه بنفسه».

(٦) ز: «والنظر». س: «والنظر بالاقتداء». خا: «بالأشباه تارة والنظر أو الاقتداء». وكذا كان في خب، فأصلحه بعضهم: «بالأشباه والنظراء تارة والاقتداء». وكذا في ط. والمثبت من ف، ل.

ﷺ أنه قال: «من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة حُطّتْ عنه خطاياه[١]، ولو كانت مثلَ زَبَدِ البحر»[٢].

وقال لي آخر من أهل مكة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل اغتسل[٣]، وطاف[٤] بالبيت أسبوعا[٥]، وقد محي عنه ذلك.

وقال لي آخر: قد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «أذنبَ عبدٌ ذنبًا، فقال: أيْ ربِّ أصبتُ ذنبًا فاغفره لي، فغفر له[٦]. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أيْ ربِّ أصبتُ ذنبًا، فاغفره لي، فغفره له. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أيْ ربِّ أصبتُ ذنبًا، فاغفره لي[٧]. فقال الله عز وجل: علِمَ عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به. قد غفرتُ لِعبدي، فليصنَعْ ما شاء!»[٨].

---

(١) ل، خا، خب: «حطت خطاياه».

(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل التسبيح (٦٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩١).

(٣) ز: «ثم اغتسل».

(٤) س: «فطاف».

(٥) يعني سبع مرّات أي سبعة أشواط. النهاية (٢/ ٣٣٦).

(٦) ز: «فغفره له». ل: «فغفر الله له ذنبه».

(٧) النص «فغفره له...» إلى هنا أثبتناه من ل، ونحوه في خا، خب. وقد استدرك في حاشية ف. وكذا وردت هذه العبارة في الحديث ثلاث مرات، وفي رواية في صحيح مسلم أربع مرات.

(٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٥٠٧). ومسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٨).

قال: وأنا لا أشكّ أنّ لي ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به.

وهذا الضرب من الناس قد تعلّق بنصوص الرجاء، واتّكل عليها، وتعلق بها[1] بكلتا يديه. وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء.

وللجهال [٨/ب] من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب، كقول بعضهم:

وكَثِّرْ ما استطعتَ من الخطايا إذا كان القدومُ على كريمِ[2]

وقول الآخر: التنزّه من الذنوب جهل بسعة عفو الله!

وقول الآخر[3]: تركُ الذنوب جراءةٌ على مغفرة الله، واستصغارٌ لها!

وقال أبو محمد ابن حزم: رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللهم إنّي أعوذ بك من العصمة!

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر، وأن العبد لا فعل له البتة ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

---

(١) ز: «به».

(٢) س،ل: «وأكثر». وقد أنشده المؤلف في عدة الصابرين (٥٠) أيضًا. والبيت لأبي نواس في وفيات الأعيان (٢/ ٩٧) وفيه: «تكثَّر». وفي ديوانه (٧٣٠) مع عجز آخر:

تكثّرْ ما استطعتَ من الخطايا فإنك قاصدٌ ربًّا غفورا

(٣) ل، خا: «وقال الآخر».

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء، وأنّ الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وإيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرة التردد إلى قبورهم، والتضرّع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسل إلى الله بهم، وسؤاله بحقّهم عليه وحرمتهم عنده.

ومنهم من يغترّ بآبائه وأسلافه، وأن لهم عند الله مكانة وصلاحًا؛ فلا يدَعون[1] أن يخلّصوه؛ كما يشاهد في حضرة الملوك، فإنّ الملوك تهَبُ لخواصّهم ذنوبَ أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلّصه أبوه وجدّه بجاهه ومنزلته.

ومنهم من يغترّ بأنّ الله عز وجل غنيّ عن عذابه، وأنّ عذابه[2] لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا ينقص من ملكه شيئًا؛ فيقول: أنا مضطرّ إلى رحمته، وهو أغنى الأغنياء[3]. ولو أن فقيرًا مسكينًا، مضطرًّا[4] إلى شربة ماء، عند مَن في داره شطٌّ يجري، لَما منعه منها؛ فالله أكرم وأوسع، فالمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد[5] في ملكه شيئًا.

---

(١) س: «فلا يدعوه».
(٢) «أنّ» من س.
(٣) ز: «وهو غني عن عذابه»، ولعلها تكررت خطأ مكان «وهو أغنى الأغنياء».
(٤) ف: «مضطر».
(٥) ز: «لاتزيده».

ومنهم من يغترّ بفهم فاسد فهِمَه[1] هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة[2]، فاتكلوا عليه، كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى/ ٥] قالوا[3]: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد[4] من أمته!

وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه. فإنّه يرضى بما يُرضي[5] ربَّه عز وجل، والله تعالى يُرضيه تعذيبُ الظلَمة [٩/أ] والفسَقة والخوَنة والمصرّين على الكبائر. فحاشا رسولَه أن لا يرضى بما يرضى به ربه[6] تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر/ ٥٣]. وهذا أيضًا من أقبح الجهل. فإن الشرك داخل في هذه الآية، فإنّه رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أنّ هذه الآية في حق التائبين، فإنّه يغفر كلّ ذنب للتائب[7]، أي ذنب كان[8]. ولو كانت الآية في حق غير التائبين[9] لبطلت نصوص الوعيد كلّها، وأحاديث إخراج

---

(١) «فهمه» ساقط من ز.
(٢) «والسنة» ساقط من س.
(٣) ف: «قال».
(٤) س: «أحد في النار».
(٥) ز: «يرضى به».
(٦) س: «أن لا يرضى به ربّه»، فأسقط «بما يرضى».
(٧) كذا في ف. وفي ل، ز، خا: «ذنب كل تائب».
(٨) ل، خا: «من أي ذنب كان».
(٩) العبارة «فإنه يغفر... غير التائبين» ساقطة من س.

قوم من الموحدين[1] من النار بالشفاعة.

وهذا إنما أُتِيَ صاحبُه من قلّة علمه وفهمه، فإنه سبحانه ههنا عمّم وأطلق فعُلِمَ أنه أراد التائبين. وفي سورة النساء خصّص وقيّد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء/ ٤٨]، فأخبر سبحانه أنه لا يغفر[2] الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه. ولو كان هذا في حقّ التائب لم يفرّق بين الشرك وغيره[3].

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾[4] [الانفطار/ ٦] فيقول: كَرَمُه! وقد يقول بعضهم: إنّه لقّن المغترَّ حجتَه، وهذا جهل قبيح. وإنما غرّه بربّه الغرورُ ـ وهو الشيطان ـ ونفسُه الأمّارة بالسوء، وجهلُه، وهواه.

وأتى سبحانه بلفظ «الكريم»، وهو السيّد العظيم المطاع[5] الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقّه، فوضع هذا المغترُّ الغرورَ في غير موضعه، واغترّ بمن لا ينبغي الاغترار به.

وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾ [الليل/ ١٥ ـ ١٦] وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة/ ٢٤]. ولم يدر هذا المغتر أنّ قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [الليل/ ١٤] هو لِنارٍ

---

(١) ز: «قوم موحدين».

(٢) العبارة بعد «لا يغفر» في الآية إلى هنا ساقطة من س.

(٣) «وأخبر... وغيره» سقطت من ف، فاستدرك بعضهم في الحاشية: «وأخبر أنه يغفر ما دونه» فقط.

(٤) الآية الكريمة في ف إلى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ وفي س اكتفى بـ«الذي»!

(٥) س: «والمطاع»..

مخصوصةٍ من جملة دركات جهنم. ولو كانت جميع جهنم، فهو سبحانه لم يقل: «لا يدخلها»، بل قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾، ولا يلزم[1] من عدم صِليِّها عدمُ دخولها، فإنّ الصِّليَّ أخصُّ من الدخول، ونفيُ الأخصّ لا يستلزم نفي الأعم.

ثم إنّ هذا المغترّ لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونًا له أن يُجَنَّبَها.

وأما قوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة/ ٢٤]، فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران/ ١٣٣]. ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفسّاق والظلَمة، ولا ينافي إعدادَ الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، [٩/ب] ولم يعمل خيرًا قط.

وكاتّكال[2] بعضهم على صوم يوم عاشوراء، أو يوم عرفة[3]، حتّى يقول بعضهم: يوم عاشوراء[4] يكفّر ذنوب العام[5] كلّها، ويبقى صوم يوم عرفة[6] زيادة في الأجر[7]. ولم يدر هذا المغتر أنّ صوم رمضان

---

(١) ف: «فلا يلزم».
(٢) ز: «وكاغترار»، ولعله سهو.
(٣) ف،س: «ويوم عرفة».
(٤) يعني: صومه. وقد زاد بعضهم كلمة «الصوم» فوق السطر في ز، كما كتب في حاشية س: «ظ صوم».
(٥) ف: «الذنوب للعام». س: «الذنوب العام».
(٦) ل: «صيام يوم عرفة». ز: «ويبقى يوم عرفة».
(٧) يشير إلى حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، قال: سئل ـ ﷺ ـ عن =

والصلوات الخمس أعظم وأجلّ من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينها[١] إذا اجتُنِبَتْ الكبائر[٢].

فرمضان [إلى رمضان][٣] والجمعة إلى الجمعة لا يقوى على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين[٤] على تكفير الصغائر. فكيف يكفِّر صومُ يوم تطوّع كلَّ كبيرة عملها العبد، وهو مصرّ عليها، غير تائب منها؟ هذا محال، على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة[٥] ويوم عاشوراء مكفرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، ويكون من نصوص الوعد[٦] التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير. فإذا لم يصرّ على الكبائر تساعدَ الصومُ وعدمُ الإصرار وتعاونا على عموم التكفير، كما كان رمضان والصلوات

= صوم يوم عرفة، فقال: «يكفر السنة الماضية والباقية». قال: وسئل عن صوم يوم عاشوراء فقال: «يكفر السنة الماضية» الحديث، أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء... (١١٦٢).

(١) كذا في س، خا. وفي غيرهما: «مابينهما». ووقع في ز: «ما يكفر»، فزاد بعضهم فوق السطر: «إلا» ليستقيم المعنى.

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر» أخرجه مسلم في الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة... (٢٣٣).

(٣) ما بين الحاصرتين من خب.

(٤) ز: «مجموع الأمر».

(٥) س: «صوم عرفة».

(٦) ز،خا: «الوعيد»، خطأ.

الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدَين متعاونَين على تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال[1]: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء/ ٣١].

فعلم أنّ جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمنع[2] أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلّما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل[3].

وكاتّكال بعضهم على قوله ﷺ حاكيًا عن ربه: «أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء»[4] يعني: ما كان في ظنه، فإنّي فاعله به[5].

ولا ريب أنّ حسن الظن إنّما يكون مع الإحسان، فإنّ المحسن حسن الظن بربه أنّه يجازيه[6] على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته. وأما المسيء المصرّ على الكبائر والظلم والمخالفات، فإنّ وحشة

---

(١) ف: «سبحانه قال».

(٢) ف: «لا يمتنع». وفي ز: «ولا يمنع» وكلاهما خطأ.

(٣) «منه مع انفراد... أتم» سقط من ل لانتقال النظر، كما تحرف «أشمل» فيها إلى «أسهل».

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩١(١٦٠١٦) وابن المبارك في الزهد (٩٠٩) وابن حبان (٦٣٣، ٦٤١) والحاكم ٤/ ٢٦٨ (٧٦٠٣) وغيرهم، من طريق حيان أبي النضر الشامي عن واثلة، فذكره، وفيه قصة.
والحديث صححه ابن حبان، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذهبي: «صحيح على شرط مسلم».

(٥) ف: «فأنا فاعله به»، وسقط «به» من س.

(٦) ف: «أن يجازيه».

المعاصي والظلم والإجرام تمنعه[1] من حسن الظن بربه. وهذا موجود في الشاهد، فإنّ العبد الآبق المسيء[2] الخارج عن طاعة سيده لا يحسن [١٠/أ] الظن به[3].

ولا يجامع وحشةَ الإساءة إحسانُ الظنّ[4] أبدًا، فإنّ المسيء مستوحش بقدر إساءته. وأحسنُ الناس ظنًّا بربّه أطوعُهم له، كما قال الحسن البصري: إنّ المؤمن أحسن الظنَّ بربّه، فأحسن العمل. وإنّ الفاجر أساء الظنَّ بربّه، فأساء العمل[5].

وكيف يكون محسنَ الظن[6] بربه من هو شارد عنه، حالّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه[7]، متعرض[8] للعنته، قد هان حقّه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصرَّ عليه!

وكيف يحسن الظن به[9] من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه

---

(١) ل، ز، خا: «يمنعه».
(٢) ف: «المسيء الآبق».
(٣) «به» ساقط من س.
(٤) «الظنّ» ساقط من س، وفيها: «تجامع».
(٥) أخرجه أحمد في الزهد (١٦٥٢) من طريق سفيان عن رجل عن الحسن، فذكره. ورواه مخلد بن الحسين عن هشام عن الحسن، فذكره. أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٤) وعليه فالأثر لا بأس به.
(٦) ف: «حسن الظن». ز: «يحسن الظن».
(٧) ف، ب: «يبغضه».
(٨) س: «يتعرض»، وأشير في الحاشية إلى ما في غيرها.
(٩) ز: «بربّه».

ووصفَتْه به رُسُله[1]، وظنّ بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟.

وكيف يحسن الظنّ به من يظن[2] أنه لا يتكلّم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يرضى، ولا يغضب؟

وقد قال تعالى في حق من شكّ في تعلّق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السرّ من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت/ ٢٣] فهؤلاء لما ظنّوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيرًا مما يعملون، كان هذا إساءةً لظنهم بربّهم، فأرداهم ذلك الظن.

وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووَصَفه بما لا يليق به. فإذا ظنّ هذا أنه يُدخِلُه الجنةَ كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلاً من الشيطان، لا إحسانَ ظنٍّ بربّه[3].

فتأمَّلْ هذا الموضع، وتأمَّلْ شدة الحاجة إليه!

وكيف يجتمع في قلب العبد تيقُّنُه بأنّه ملاقٍ الله، وأنّ الله[4] يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم سرّه وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره؛ وأنه[5] موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه، مضيّع لأوامره، معطّل لحقوقه. وهو مع هذا محسنٌ الظنَّ[6]

---

(١) ف: «وصفه به رسوله».

(٢) ف: «به الظن من ظنّ».

(٣) س: «إحسان الظن بربه تعالى». وفي ز: «إحسان ظنه بربه». وفي خا: «إحسان ظنّ به». والمثبت من ف، ل. وكذا في خب.

(٤) س: «وأنّه».

(٥) ز: «فإنه»، خطأ.

(٦) كذا ضبط بفتح النون في ف. وفي ز: «يحسن الظن» وكذا في خب.

به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟

وقد قال أبو أمامة بن سهل[1] بن حُنَيف: دخلتُ أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو[2] رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير ـ أو سبعة ـ فأمرني رسول الله ﷺ [١٠/ب] أن أفرّقها. قالت: فشغلني وجع النبي ﷺ، حتى عافاه الله. ثم سألني عنها فقال: «ما فعلتِ؟ أكنتِ فرّقتِ الستّةَ الدنانيَر[3]؟» فقلت: لا، والله لقد كان شغلني[4] وجعُك. قالت: فدعا بها، فوضعها في كفه، فقال: «ما ظنُّ نبيِّ اللَّهِ لو لقي الله، وهذه عنده؟»[5] وفي لفظ: «ما ظنُّ محمدٍ بربّه لو لقي الله، وهذه عنده؟».

فيا لله! ما ظنُّ أصحابِ الكبائر والظَّلَمةِ بالله إذا لقُوه، ومظالم العباد

---

(١) وقع في س: «أبو أمامة سهل»، فأسقط كلمة الابن قبل «سهل». وكذا في ط. وهو غلط، فإنّ أبا أمامة كنية اشتهر بها أسعد بن سهل بن حنيف. وقد ولد قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، وحنّكه النبي ﷺ وسمّاه باسم جده لأمه: أبي أمامة أسعد بن زرارة. انظر الإصابة (١/ ١٨١).

(٢) س: «أو».

(٣) ف. ز: «الستة دنانير».

(٤) ف: «قد شغلني». ز: «لقد شغلني».

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ١٠٤(٢٤٧٣٣) وابن حبان (٣٢١٣) من طريق موسى بن جبير عن أبي أمامة بن سهل. فذكره. قلت: هذا سند ضعيف، فيه موسى بن جبير قال ابن حبان في الثقات: «كان يخطىء ويخالف». وقال ابن القطان: «لا يعرف حاله».

ورواه محمد بن عمرو وأبو حازم عن أبي سلمة عن عائشة فذكرته باللفظ الآخر الذي ذكره المؤلف. أخرجه أحمد (٢٤٢٢٢، ٢٤٥٦٠) وابن حبان (٧١٥، ٣٢١٢) وغيرهما. والحديث سنده صحيح، وقد صححه ابن حبان.

عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولُهم: «حَسَّنَّا ظنونَنا بك[1]»، لم يعذَّبْ ظالم ولا فاسق[2]. فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كلّ ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنّه بالله؛ فإنّ النار لا تمسّه! فسبحان الله، ما يبلغ الغرور بالعبد!.

وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات/ ٨٦ ـ ٨٧] أي: فما[3] ظنّكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيرَه؟

ومن تأمل هذا الموضع[4] حقّ التأمل علِمَ أنّ حسنَ الظن بالله هو حسنُ العمل نفسه. فإنّ العبد إنما يحمله على حسن العمل حسنُ ظنّه بربه أن يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبّلها منه. فالذي[5] حمله على العمل حسنُ الظن، وكلّما[6] حسُن ظنُّه حسُن عملُه، وإلا فحسنُ الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في الترمذي والمسند من حديث شدّاد بن أوس عن النبي ﷺ أنّه قال[7]: «الكيّس من دان نفسَه، وعمِل لما بعد الموت. والعاجز من أتبعَ نفسَه هواها، وتمنّى على

---

(١) خا: «بالله». ز: «حسن...».

(٢) وقع في ف: «أنك لم تعذب ظالمًا ولا فاسقًا». وهذا مفسد للسياق. وفي ل: «ظنو بانك» وهو تحريف «ظنوننا بك».

(٣) ل،ز: «وما».

(٤) ل: «هذه المواضع».

(٥) ف: «فإن الذي».

(٦) ف، ل: «فلما». خب: «فكلما».

(٧) «أنّه قال» انفردت بها ز.

الله»[1].

وبالجملة، فحسن الظن إنّما يكون مع انعقاد أسباب النجاح. وأما مع انعقاد أسباب الهلاك، فلا يتأتّى إحسان الظن.

فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستندُ حسن الظن سعةَ مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأنّ رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضرّه العفو.

قيل: الأمرُ هكذا، واللَّهُ فوق ذلك، وأجلّ[2] وأكرم وأجوَد وأرحم. ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة، والعزة، والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة. فلو كان [١١/أ] معوَّلُ حُسنِ الظنّ على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه. فما ينفع المجرمَ أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرّض للعنته، وأوضعَ في محارمه، وانتهك حرماته؟ بل حسن الظن ينفع من تاب، وندم، وأقلع، وبدّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم حسّن الظنّ. فهذا حسن الظن[3]، والأول غرور! والله المستعان.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وأحمد ٤/ ١٢٤ (١٧١٢٣) وابن ماجه (٤٢٦٠) والحاكم ١/ ١٢٥ (١٩١) وغيرهم، من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس، فذكره.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن». وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، فتعقبه الذهبي بقوله: «لا والله، أبو بكر واهٍ».

(٢) «أجلّ» ساقط من ز.

(٣) س، ز، ل: «حسن ظنّ». والمثبت من ف، وكذا في خا، خب.

ولا تستطِلْ هذا الفصل، فإنّ الحاجة إليه شديدة لكل أحد، ففَرْقٌ[1] بين حسن الظن بالله وبين الغِرّة[2] به.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/ ٢١٨][3]، فجعل هؤلاء أهل الرجاء، لا البطّالين[4] والفاسقين.

وقال[5] تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل/ ١١٠]، فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها.

فالعالم[6] يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

---

(١) س: «وفرق».
(٢) ف: «الغرور».
(٣) في ز خلط بين هذه الآية والآية (٧٢) من الأنفال. وكذا في خب.
(٤) س،ل: «الظالمين».
(٥) ز: «وقد قال».
(٦) ز: «والعالم».